الفصل الثالث

المنهج السلفي يقيم الدولة العصرية

(إننا لا نبغي التجديد الذي يفقدنا ديننا وعقيدتنا.
ليس هناك دليل أو سنة تمنع إحداث المعراف).
الملك عبد العزيز

فرضت جيوش عبد العزيز سيطرتها على أقطار الجزيرة العربية في حزم من لا يريد سفك الدم إلا بقدر، وفي حذر. كان في مطالع الشباب والنصر في ركابه، وفي فترة سبقت الحرب العالمية الأولى، والإمبراطورية التركية تريد أن تنقض، وألمانيا تزاحم الدول العظمى بمنكب عظيم. فلما دارت رحى الحرب (١٩١٤ - ١٩١٨) - فرض عبد العزيز حياده على عالم لم يألف ذلك من العرب. ولما وضعت الحرب أوزارها حل يوم الحساب لشريف مكة، وكان إنجليزي الولاء. فسارت إليه جيوش عبد العزيز، وخلع أهل مكة الشريف (حسين)، وحملت سفائن إنجلترا ابنه الملك عليا؛ فدخل عبد العزيز سنة ١٣٤٣ - ١٩٢٤ مكة المكرمة.

وإجتمع العلماء والأعيان فأعلن فيهم جملة الخلاف الذي يحمل السلاح من جرائه:

قال فيما قال: (يقولون إننا ننكر شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة! معاذ الله أن نقول هذا. وإنما نطلب من الله أن يشفّع فينا نبينا: (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟) البقرة/٢٥٥. بل ندعو الله أن يشفع فينا الولد الصغير ونقول: (اللهم اجعله فرطاً لأبويه) ولا نطلب شفاعة الطفل. وأما محبة الأولياء والصالحين فمن ذا الذي يبغضهم منا؟ فإن كان هذا مقبولاً عندكم فتعالوا نتابع على كتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفاء الراشدين من بعده).

قالوا: كلنا نتابع.

قال: (أعيذكم بالله من التقية. لا تكتموا شيئاً).

وفاقه علماء مكة علماء نجد، فاتفقوا على (أن من جعل بينه وبين الله وسائط من خلقه يدعوهم ويرجوهم في جلب نفع أو دفع ضر فهو كافر حلال الدم والمال. وأن البناء على القبور واتخاذ السرج عليها وإقامة الصلاة فيها بدعة محرمة في الشريعة، وأن من سأل الله بجاه أحد من خلقه فهو مبتدع مرتكب حراماً).

وتكلم عن التجديد فقال : (إن المتدين الذى فيه حفظ ديننا وأعراضنا وشرفنا «مرحبابه وأهلاً» وأما المتدين الذى يؤذينا فى أديانا وأعراضنا وشرفنا فوالله لن نذعن له ولن نعمل به ولو قطعت منا الرقاب) .

وفى غرة ذى الحجة ١٣٤٧ (١٩٢٩/٥/١١) خطب الحجيج بمكة ليعلن التزامه بالمنهج السلفى ويحدد أبعاده فقال : (يسموننا بالوهابيين ويسمون مذهبنا الوهابى باعتبار أنه مذهب خاص . . . نحن لسنا أصحاب مذهب جديد أو عقيدة جديدة ، ولم يأت محمد بن عبد الوهاب بالجديد . فعقيدتنا هى «عقيدة السلف الصالح» التى جاءت فى كتاب الله وسنة رسوله . ونحن نحترم الأئمة الأربعة ، ولا فرق عندنا بين مالك والشافعى وأحمد وأبى حنيفة ، كلهم محترمون فى نظرنا ، إننا لا نبغى التجديد الذى يفقدنا ديننا وعقيدتنا . . . .) .

وفى ٢٠ من جمادى سنة ١٣٥١ = ١٨ من سبتمبر ١٩٣٣ أعلن قيام المملكة العربية السعودية فى جزيرة العرب .

وفى حجيج سنة ١٣٥٢ (١٩٣٤) زاد تحديداً فقال : (وقد جعلنا الله مبشرين بالكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح ، لا نتقيد بمذهب دون آخر ، ومتى وجدنا الدليل القوى فى أى مذهب من المذاهب الأربعة رجعنا إليه وتمسكنا به ، أما إذا لم نجد دليلاً قوياً فنأخذ بقول الإمام أحمد) .

وكما صنع هذا المسلم العظيم ملكه بالعلم السلفى -- صنعه بالمسلك السلفى الذى يهب للمسلم كل القوة ، إذ يدرك من معنى الشهادة ومنطق العبادة : أن الله أكبر . وأن من كان الله معه فهو منصور .

وبالتوحيد الخالص صار بين المسلمين فى عصره «المسلم الأول» . وهذا درس فى العظمة خليق بكل مسلم أن يتعلمه .

يقول روزفلت - أول وآخر أمريكى رأس أمريكا مدداً أربعاً - لصديقه «برناردباروخ» أول رئيس للجنة الطاقة الذرية وأمريكا فى أوج انتصارها العالمى : (إن هذا الملك العربى ذا الإرادة الحديدية هو الوحيد من بين جميع من عاملتهم طول حياتى الذى لم آخذ منه إلا أقل شىء لبلادى»[1] .

(١) ورد النص بالفرنسية فى كتاب فيصل ملك العربية

لمؤلفه بنوا ميشان

والنص الفرنسى :

Faycal. Roi d'Arabie.
Benoist M chin.

Parmi tous les hommes auxquels j'ai eu affaire au cours de mavie. je n.ai pas rencontré un seul. dont l'ai pu moins tiré que ce cemonarque à la volonté de fer.

فلقد التقى الرجلان على ظهر البارجة كوينسى فى البحيرات المرة (فى أرض مصر) والحرب العالمية الثانية فى عنفوانها . قال روزفلت :

أنا سعيد بلقائك . ماذا أستطيع أن أصنع لك ؟

قال ملك العرب : إنك دعوتنى للقائك فأنا أتوقع أنك تطلب منى شيئاً .

واستطردا إلى السياسة ، فأعلن الملك وجوب جلاء الإنجليز والفرنسيين ، المنتصرين فى الحرب والمتحالفين مع روزفلت ، عن كل بلاد العرب التى يحتلونها فى آسيا وأفريقية .

وهذا الذى أعلنه لرئيس أمريكا سنة ١٩٤٥ فى الحرب العالمية الثانية عالن به القائد التركى (أنور باشا) قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) ليجلو الأتراك عن أرض العرب .

وفى اللقاء ذاته طلب إليه رئيس أمريكا أن يوافق على زيادة هجرة اليهود إلى فلسطين فأجاب : (إننى - على النقيض من ذلك - أطلب أن يقل عدد الموجودين منهم فيها) .

وفى ١٥ نوفمبر من العام ذاته خطب الحجيج فيما صار قضية الإسلام كله . فقال لممثليهم المجتمعين بمكة .

(إن مسألة فلسطين أهم ما يشغل أفكار المسلمين هذه الأيام ، وقد سبق أن تكلمت مع أركان الحكومة البريطانية ، كما تحدثت مطولاً مع الرئيس روزفلت) .

ومن أجل فلسطين حاربت الأمة العربية حروب سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٧٣ وستحارب .

ولما نشرت الوثائق السياسية فيما بعدُ ظهر أنه كتب إلى روزفلت فى ٧ شوال سنة ١٣٥٧ = ١٩٣٨/١١/٢٩ : (لقد ظهر من البيان الذى نشر عن موقف أمريكا من قضية فلسطين أنه قد نظر إليها من وجهة نظر واحدة هى وجهة نظر اليهود والصهيونية وأهملت وجهات نظر العرب ، وقد رأينا من آثار الدعاية اليهودية الواسعة النطاق أن الشعب الأمريكى الديمقراطى قد ضلل تضليلاً عظيماً أدى إلى اعتبار مناصرة اليهود على سحق العرب فى فلسطين عملاً إنسانياً . . . وأنا على ثقة بأنه إذا اتضح لفخامتكم وللشعب الأمريكى حق العرب فى فلسطين فإنكم ستقومون بنصرته حق القيام) .

وأتبع هذا الاحتجاج بالتحذير الذى أثبتت الأيام صدق بصر صاحبه بالأمور ، فى رسالة مؤرخة فى ٢٥ من ربيع الآخر سنة ١٣٦٢ = ١٩٤٣/٤/٣٠ يقول فيها : (. . . لقد سبق أن كتبت لفخامتكم . . . كتاباً أوضحت فيه حقيقة الأمر بين العرب واليهود فى فلسطين ، وكنت بعد كتابى المشار إليه لفخامتكم أعتقد أن حق العرب فى فلسطين أصبح واضحاً لفخامتكم . إننا لا نريد محو اليهود ولا نطالب بذلك ، ولكننا نطالب بألا يمحى العرب من أرض فلسطين من أجل إسكان اليهود فيها !

إنه – لا سمح الله – لو أعطى اليهود بغيتهم فى فلسطين لظلت فلسطين مقر الفتن دائماً ، كم حصل فى الماضى ، تسبب المتاعب للحلفاء عامة ولحكومة بريطانيا خاصة ، واليهود بما أوتوا من قوة فى المال والعلم قادرون على إيقاع الشقاق بين العرب والحلفاء فى كل وقت – حرر فى مخيمنا بروضة خريم فى اليوم . . .) .

وبعث إليه روزفلت مبعوثاً شخصياً (الكولونيل هارى هوسكنز) يستطلع : ما إذا كان الملك يقابل (حاييم وايزمان) - أحد مؤسسى إسرائيل؟ فوضح الملك الكبير الجميع مواضعهم . فكتب إلى روزفلت فى رجب سنة ١٣٦٢ (يوليو ١٩٤٣) يشير إلى الخطابين السابقين ثم يقول . . . (أما الشخص الذى هو حاييم وايزمان فهذا الشخص بينى وبينه عداوة خاصة ، وذلك لما قام به نحو شخصى من جرأة مجرمة ، بتوجيهه إلىّ دون جميع العرب والمسلمين تكليفاً دنيئاً لأكون خائناً لدينى وبلاد ، الأمر الذى يزيد البغض له ولمن ينتسب إليه ، وهذا التكليف قد حدث فى أول سنة من الحرب إذ أرسل إلىّ شخصاً أوربياً معروفاً يكلفنى أن أترك مسألة فلسطين وتأييد صفوف العرب والمسلمين فيها ، ويسلم إلى عشرين مليون جنيه مقابل ذلك ، وأن يكون هذا المبلغ مكفولاً من طرف فخامة الرئيس روزفلت نفسه ! فهل من جرأة أودناءة أكبر من هذه . . . ؟ وهل من جريمة أكبر من هذه الجريمة ؟) .

* * *

لم تكن الانتصارات فى ميادين المعارك ولا إقامة الدولة بتمامها إلا كهيئة الصعود إلى قمة الجبل . والاستقرار فيها أشق من الصعود إليها . وأشق منهما أن يجارى الصاعد المستقر رياح التغيير وأن تصدر مبادرات التغيير عنه .

والعمل للإصلاح الداخلى كهيئة إصلاح النفس أشق من إصلاح الغير وأدق . وفى هذا الميدان الخطير كان عبد العزيز كدأبه غَزّاءَ ميادين وبنّاء دول ؛ فخاض معركة التجديد ببراعة وورع ، وآتاه الله الزمن فأحسن استعماله : فلقد لبث فى قومه عشر سنين ينصحهم باستعمال التليفون .

وفى سنة ١٩١١ اعترض البعض لاستعمال البرق (التلغراف) فكان جوابه من صميم الأصول الفقهية التى يعلمها ابن عبد الوهاب : ليس هناك دليل أو سنة تمنع إحداثه : أى أنه يستعمل «أصل الإباحة» .

وكذلك كان شأن السيارات والدراجات وأمثالها من وسائل الحضارة ، فادام لا يوجد نص يقطع بالمنع فعلينا أن نجتهد لاستخلاص حكم الشارع فيما تصلح به الدنيا كما يأذن لنابها الدين .

وفى سنة ١٣٤٥ = ١٩٢٧ اجتمع رؤساء الإخوان فى الأرطاوية وأنكروا عليه أموراً .

١ – إرساله ولده سعوداً إلى مصر .

٢ – إرساله ولده فيصلاً إلى لندن .

٣ – استخدامه السيارات والتلغرافات والتليفون .

٤ – فرض الضرائب فى الحجاز ونجد .

٥ – منعه المتاجرة مع الكويت .

٦ – إذنه لعشائر العراق وشرق الأردن بالرعى فى بلادهم .

وعجل بجمعهم للمشورة ، فاجتمعوا فى الرياض وأصدروا فتواهم المشهورة (١) .

وفى العام التالى جمعهم فى بريدة ١٣٤٧ = ١٩٢٨ وجمعهم مرة ثالثة لمناقشتهم فى تعلم الرسم

---

(١) (من محمد بن عبد اللطيف و . . . . و . . . . إلى من يراه من إخواننا المسلمين سلك الله بنا وبهم الطريق المستقيم وجنبنا وإياهم طريق الجحيم آمين . . . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فقد ورد علينا من الإمام سلمه الله تعالى سؤال من بعض الإخوان عن مسائل تطلب منا الجواب فأجبناه بما نصه :

أما مسألة البرق – التلغراف غير السلكى – فهو أمر حادث فى آخر الزمان ولانعلم حقيقته ولارأينا فيه كلاما لأهل العلم . نتوقف فى مسألته ، ولانقول على الله ورسوله بغير علم .

وأما مسجد حمزة وأبى رشيد فأفتينا الإمام – وفقه الله – بهدمها على الفور .

وأما القوانين فإذا كان منها شىء بالحجاز فيزال فورا ولايحكم إلابالشرع المطهر .

وأما دخول الحاج المصرى بالسلاح والقوة فى بلد الله الحرام فأفتينا الإمام بمنعهم من الدخول بالسلاح والقوة من إظهارهم الشرك وجميع المنكرات .

وأما المحمل فأفتينا بمنعه من دخول المسجد الحرام ومن تمكن أحد أن يتمسح به ويقبله . وما يفعله أهله من الملاهى والمنكرات يمنعون منها وإما منعه من مكة بالكلية فإن أمكن بلامفسدة تتعين وإلا فاحتمال أحد المفسدتين ، لدفع أعلاهما سائغ شرعا .

وأما الرافضة فأفتينا الإمام أن يلزمهم البيعة على الإسلام ويمنعهم من إظهار شعائر دينهم الباطل . وعلى الإمام أيضا أن يلزم نائبه على الأحساء أن يحضرهم عند الشيخ ابن بشر ويبايعون على دين الله وترك دعاء الصالحين من أهل البيت وغيرهم . وعلى ترك سائر البدع من اجتماعهم على مأتمهم وغيرها مما يقيمون به شعائر مذهبهم الباطل ويمنعون من زيارة المشاهد . ولذلك يمنعون الاجتماع للصلوات الخمس هم وغيرهم فى المساجد . ويرتب فيهم أئمة ومؤذنون ونواب من أهل السنة ويلزمون تعلم ثلاثة الأصول وكذلك فإن كانت لهم محال معينة لإقامة البدع تهدم ، ويمنعون إقامة البدع فى المساجد وغيرها من أى قبول ماذكر يبقى من بلاد المسلمين .

وأما الرافضة من أهل القطيف فيلزم الإمام أيده الله – الشيخ ابن بشر أن يسافر إليهم ويلزمهم ما ذكر .

فأما البوادى التى دخلت فى ولاية المسلمين فأفتينا الإمام أن يبعث لهم دعاة ومعلمين ويلزم نوابه من الأمراء فى كل ناحية مساعدة المذكورين على إلزامهم بشرائع الإسلام ومنعهم من المحرمات . . .

وأما رافضة العراق الذين انتشروا وخالطوا بادية المسلمين فأفتينا الإمام بكفهم عن الدخول فى مواقع المسلمين وأرضهم .

وأما المكوس فأفتينا أنها من المحرمات الظاهرة فإن تركها فهو الواجب عليه ، وإن امتنع فلايجوز شق عصا طاعة المسلمين والخروج عن طاعته لأجلها .

وأما الجهاد فهو مخول إلى نظر الإمام وعليه أن يراعى ماهو الأصلح للإسلام والمسلمين على حسب مايقتضيه الشريعة الغراء . ونسأل الله لنا ولكم ولجميع المسلمين التوفيق والهداية . . . . .) .

ونفذ الإمام فلم يقبل المحمل . وهدم مسجد حمزة . وعطل التلغراف . ثم فرضه الزمان على الجميع فى حياة عبد العزيز .

واللغة الأجنبية والجغرافيا . فلقد كانوا ينكرون كروية الأرض مع أن هذا كشف عربي قديم . فلم يجيئوا بدليل ضدها ، بل أجابوا بما يمكن إجماله في العبارة التالية : (لقد أدلينا برأينا فإن قبل الإمام ما رأينا فالحمد لله ، وإن خالفنا فليست هذه أول مرة يخالفنا فيها) .

وهكذا عمل العلماء بأصل طاعة الإمام إذا لم يأمر بمعصية ، وساروا وراءه في أصل الإباحة . وهم العليمون باقتداره في اجتهاده وإخلاصه لله وورعه . وهم سلفيون يحفظون حديث عبادة بن الصامت – وكان أحد النقباء : (بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرةٍ علينا . وعلى ألا ننازع الأمر أهله . قال إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان . وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم) .

وبارك الله في الأرض التي يُعبد فيها الله وحده . ففجرت فيها ينابيع البترول في حياة عبد العزيز . فضلاً من الله ونعمة ، وإيذاناً بعصر جديد تعلو فيه كلمة المملكة السعودية ، ومعها كلمة الأمة العربية ، أي كلمة الإسلام .

وفي سنة ١٩٥٣ صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى فتتابع على الملك أبناؤه سعود فيصل فخالد .

الملك فيصل بن عبد العزيز :

لئن مثل عبد العزيز وابنه فيصل روح الدعوة الوهابية وهو إحياء العقيدة الصحيحة وإيقاظ المسلمين – إن لفيصل شأناً خصته به السماء هو أن يثبت حضور ابن عبد الوهاب في عصرنا الحاضر ، في فترة حاسمة كل الحسم في تاريخ المسلمين : ففي فيصل تجتمع دماء (محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود) فأمه بنت عبد الله بن حسن قاضي قضاة نجد وحفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

قرأ القرآن على جده . وسُقي الورع منذ الحداثة . وقاد جيوش أبيه وهو في مطلع شبابه ، ففتح عسير سنة ١٣٤٠ . واختص بتمثيل أبيه في محافل السياسة . فلما جاء إليه الملك جاءه في ميادين السياسة والشجاعة والورع والزهد وعلوم السلف .

وكان ابنَ عبد العزيز حقاً ، وحفيد محمد بن عبد الوهاب صدقاً . حيي حياة زاهدة لا طاقة بها للملوك ، ولمعت في أفعاله ومضات فكر أخلص صاحبه لله وللناس ، فسار سيرة السلف الصالح ، فكان كما عبر عنه بعض الفرنجة رجل عالمين : الدنيا والآخرة !

تخضلّ عينه بالدمع أو ينهلّ من مأقيْه القطر إذ يستمع إلى خطبة الجمعة ، – في حين يدفع بساعدين قويين جزيرة العرب في ميادين الحضارة العصرية التي يأذن بها الإسلام . ويشيد

الجامعات الدينية والعلمية والصناعات الحديثة والزراعات المختلفة ، ويعلم المرأة ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويفتح الميادين لشعبه ، ويمد يد المساعدة لأهل الإسلام فى أكثر من مكان .

ولما دنت ساعة العسرة حمل مسئولية الإسلام كله على عاتقه . فجالد الدول العظمى جلاد رجل عرك السياسة العالمية ، فجعلها أسمع للحق وأنطق بالصدق ، وأبصر بحقوق العرب .

يومئذ دخل فيصل التاريخ مدخل صدق : إنه الرجل الذى صيّر البترول – عصب الحرب والسلام – مصدر قوة للعرب بعد إذ كان منشأ خوف لهم

والله الذى يرسل السحاب والغيث حيث يشاء ، ويخرج الخير من الأرض حيث يشاء – ينصر بالقيم الدينية التى تقيم الأمم ، وبالقوة المادية التى تلزم للانتصار .

فلم يك صدفة ، وإنما كان حساباً من حسابات السماء – أن تفتح بركاتها فى حياة الملك الصالح فيصل بن عبد العزيز ، فتدر آبار البترول من باطن الأرض على جزيرة العرب لتبقى على مكانة الإسلام .

وصدق فيصل عهده لله وللمسلمين يوم أعلن (إن كبرى أمانيّ أن أصلى فى بيت المقدس قبل أن أموت) ليبقى استرداد أولى القبلتين صيحة للحرب ، وغرضاً للسلام ووصية لأهل الإسلام ، من ابن محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب .

ولئن كانت إشارة عبد العزيز إلى «مخيّمنا بروضة خريم إذ يكتب إلى «روزفلت» تمسكاً بالعروبة وفحولة بساطتها ، إن شجاعة فيصل وإيمانه بصنيع السماء فى الانتصار العربى فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ – أعادت للمسلمين ذكريات صلاح الدين فى حطين وفى بيت المقدس ، وأمكنته أن يقول لرئيس أمريكى آخر يوم طار إليه (الرئيس نيكسون) فى جزيرة العرب : (لقد ولدنا وولد آباؤنا فى الصحراء ونحن من أجل أمتنا على استعداد للعودة إلى الصحراء) .

وفسر بعضٌ ذلك المقال بأنه التهديد . وفسره بعض بأنه إعلان بالاستعداد أو الجهاد .

وصدق رسول الله ﷺ : (مثل أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره)

ولقد شاءت السماء لفيصل أن يموت ميتة الشهداء . برصاصة مجنون سنة ١٣٩٥ = سنة ١٩٧٥ . فلما صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى ترك المملكة العربية السعودية عاشر دولة فى العالم من حيث المساحة . تزيد مساحتها مرة ونصف المرة على مساحة دول السوق الأوربية المشتركة التسع . جاع سياستها فى الداخل : تطبيق الشريعة بالفعل أما سياستها الخارجية فالدعوة للإسلام ، والدفاع عن مبادئه فى كل مكان .

وأورث فيصل المسلمين جميعاً قوة البترول بعد أن كان إحدى تبعاتهم !

فما أعظم ما قدم للمسلمين حفيد ابن سعود وابن عبد عبد الوهاب .